علي بن الجهم والمعتزلة

بقلم : عبد الحميد الدجيلي

لقد ظهر حديثاً ديوان الشاعر علي بن الجهم وبعد قراءته والتملي منه اندفعت الى كتابة هذه المقالة التي هي امامك .

كانت حركة الاعتزال من الحركات العنيفة في الاسلام ولعلها اعظم حادث جاء للمسلمين منذ العهد الاموي حتى اواسط الخلافة العباسية وقد كانت هذه الحركة وهذه الرجة العامل القوي في تقرير مصير الحضارة الانسانية في البلاد الاسلامية فاما تقدماً الى الامام ، واما وقوفا وجموداً الى ما شاء الله . أن حركة الاعتزال هي البادرة الاولى التي قام بها المصلحون والمفكرون في تثبيت العقائد الاسلامية عن طريق المنطق والفلسفة والبرهان وتقريب الأدلة النقلية من الأدلة العقلية. وخير كلمة رأيتها عن المعتزلة في الكتب الحديثة هي كلمة الاستاذ احمد امين اثناء بحثه عن المعتزلة في الجزء الثالث من ضحى الاسلام حيث قال [. لقد ادى للمعتزلة للاسلام خدمة لا تقدر فقد جاءت الدولة العباسية تحمي الفرس لأنها قامت على اكتافهم .. ولكن من مذاهب الفرس الثنويه .. وقرب العباسيون اليهود والنصارى .. ولذلك نجد في هذا العصر دعاة كثيرين يدعون الى ثنوية الفرس ومانوية الفرس وبعض تعاليم اليهود والنصارى والهنود الاقدمين .. وأبيح الجدل والمناظرة ... ولم يكن المحدثون والفقهاء يستطيعون أن يقفوا امامهم لأن المحدثين وامثالهم مهرة في النصوص والذي ينكر الاسلام لا يقتنع بمجرد ذكر آية أو رواية وانما يريدون دلائل عقلية .. وكان هؤلاء من ثنوية ويهود ونصارى قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية .. فكان لابد لمن يقنعهم ويرد عليهم ان يتسلح بسلاحهم .. فلم يقم بهذه المهمة الا المعتزلة فقد نازلوا الثنوية والديصانية والدهريه .. والفوا الكتب الكثيرة في الرد عليهم .. ولا يدري إلا الله ماذا كان يكون من الشر على المسلمين لولم يقف المعتزلة هذا الموقف .. فلما ضعف شأن المعتزلة بعد المحنة ظل المسلمون تحت تأثير المحافظين نحواً من الف سنة حتى جاءت النهضة الحديثة وفي الواقع انها لون من ألوان الاعتزال ففيها الشك والتجربة . وفيها الايمان بسلطة العقل وحرية الارادة ، وفيها حرية الجدل والمناظرة .. الى كثير من امثال ذلك وكلها مبادئ قال بها المعتزلة وجروا عليها]

ان حركة المعتزلة التي اشار اليها الاستاذ كانت ذات ادوار واطوار فتارة تقوى وتارة تضعف ولا شك انها اخذت تزداد عنفاً في عهد المأمون فما بعده حتى مجيء المتوكل الى الخلافة فكان السد المنيع في تمائيها ثم كان السبب المباشر الفعال في اخمادها وارجاع الفكرة القديمة فكرة السلف والتقليد والمحافظة وقبول ما جاء من الاثر من دون فكر ونظر ، وفي اثناء هذه الحركة انصبغ الأدب الاسلامي بلونين لون يؤيدها ولون يعارضها وممن كان معارضا لهذه الحركة الاصلاحية شاعر قوي البيان متركز الحجة عنيف الخصومة ذاك هو علي بن الجهم الذي عقدنا البحث له . تتلمذ لاحمد بن حنبل وتلقى مباديه الادبية والدينية في بغداد فكان الداعي الصريح والمعارض العنيد للمعتزلة وآرائهم التي قاومها بعنف استاذه الامام احمد بن حنبل . وقد وجد فيه انصار العهد القديم نصيرهم فشوقوه وشجعوه ولا سيما المتوكل الذي كان يبغض المعتزلة لبغضه اشيخهم احمد بن ابي دؤاد الذي كان لا يحترمه ايام خلافة اخيه . الواثق وقد جعل المتوكل علي بن الجهم من خواص بطانته ومن ندمائه حتى كان يسارره في امور الخاصة واوضاع زوجاته وحضاياه وقد استغل ابن الجهم هذا التقرب فنام بأمور في مجالس المتوكل الخاصة ياباها الذوق وتنفرها المروءه دالة على المتوكل أو تقربا اليه ..

وقد كان هذا الشاعر بوق المحافظين فانب المعتزلة وسبهم وتحداهم وقاومهم وسب شيوخهم ومن ناصرهم : سب احمد ابن ابي دؤاد وسب هذه الأسرة جميعاً وسب محمد بن عبد الملك الزيات وانب اصحاب الواثق وسمى المعتزلة : في شعره بالزنادقة واهل البدع والضلال والاهواء حتى قال فيه ابن ابي الحديد [كان علي بن الجهم من الحشوية شديد النصب عدواً للتوحيد والعدل .] واخذت علي بن الجهم النشوة حين جلس المتوكل على دست الخلافة فنظم فيه القصائد

البليغة وكان اول من هنأ الناس وهنأ المتوكل بقصيدة غراء تعرض فيها بالقدرية والمعتزلة ومطلعها :

وقائل ايهما انور الشمس أم سيدنا جعفر
قلت لقد اكبرت شمس الضحى جهلا وما انصفت من تذكر

ثم يقول في اثناء القصيدة معرضاً بالمعتزلة ..

قام واهل الارض في رجفة يخبط فيها المقبل المدبر
في فتنة عمياء لا نارها تخبو ولا موقدها يفتر
والدين قد اسفى وانصاره ايدي سبا موعدها المحشر
والله لو أمهلنا ساعة ما هلل الناس ولا كبروا
أليس قد كانوا اجابوا الى ان اظهروا الشرك كما اضمروا
واظهروا انهم قدر قدرة من يقضي ومن يقدر
فردهم طوعاً وكرها الى ان عرفوا الحق الذي انكروا

* * *

يا اعظم الناس على مسلم حقا ويا أشرف من يفخر
الردة الاولى ثنى أهلها حزم أبي بكر ولم يكفروا
وهذه انت تلافيتها فعاد ما قد كاد لا يذكر

ثم يختم قصيدته معرضا ايضا بالمعتزلة ومادحا قصيدته

واسمع الى غراء سنية يسطع منها المسك والعنبر
موقعها من كل ذي بدعة موقع وسم النار أو اكثر

ولم يكن علي بن الجهم ممن يتطفل في بث آرائه فقد كان يعرف ان المتوكل عزم عزما اكيداً على مقاومة احمد بن ابي دؤاد واصحابه ممن كانوا في زمن الواثق وقد امر حين تسنمه عرش الخلافة سنة [٢٣٢] هـ ان تنفذ الكتب الى الآفاق بالنهي عن الجدل والمناظرة واطلق من في السجون ممن كانوا في عهد الواثق مسجونين واستمر المتوكل في مقاومة المعتزلة قال السيوطي في تاريخ الخلفاء [أرسل المتوكل في سنة (٢٣٤) هـ الى الفقهاء والمحدثين فاستقدمهم الى سامراء وقسم بينهم الجوائز واجرى الارزاق وامرهم ان يجلسوا للناس وان يحدثوا باحاديث الصفات والرؤية فجلس عثمان ابن ابي شيبة في مدينة المنصور .. وجلس ابو بكر بن ابي شيبة في مسجد الرصافة .. ثم امر نائب مصر ان يحلق لحية قاضي القضاة بمصر ويطوف به على حمار ..] ثم قرب احمد ابن حنبل وارسل خلفه ومما ورد في كتاب علي بن الجهم الذي أرسل اليه من سامراء ما يلي [.. ان امير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قرفت به وقد كان أهل البدع مدوا اعينهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك وقد وجه اليك امير المؤمنين يأمرك بالخروج فالله الله ان تشتعفي او ترد المدل ..]

ولم يقتصر المتوكل على ذلك بل عزل ابا الوليد بن ابي دؤاد عن الظالم بسامراء ثم عن قضاء القضاة والقاه في السجن وقد كان ابوه احمد قد عينه لذلك ولم تفت ابن الجهم الشماتة باحمد بن ابي دؤاد فقال :

يا احمد بن ابي دؤاد دعوة بعثت اليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا
افسدت امر الدين حين وليته ورضيته بابي الوليد وليدا

ولما فلج احمد بن ابي دؤاد قال ابن الجهم :

فرحت بمصرعك البرية كلها من كان منهم موقنا بمعاد
كم مجلس لله قد عطلته كي لا يحدث فيه بالاسناد
ولكم مصابيح لنا عطلتها حتى تحيد عن الطريق الهادي

وقال من قصيدة طويلة حين نكب المتوكل الوزير الجبار محمد بن عبدالملك واحمد ابن ابي دؤاد وغيرهما من اصحاب الواثق ومن المؤيدين للاعتزال .

خذ للسرور من الزمان نصيبه فالعيش يفنى والليالي تنفد
والمال عارية على اصحابه عرض يذم المرء فيه ويحمد
لا تذهبي بانفس ويحك حسرة فالناس معدول به ومشرد
وابن الفتى الزيات عندي واعظ ومذكر لي لا يجور ويقصد
راحت عليه الحادثات بنكبة عظمت فرق لها العدى والحسد
يا ويح احمد كيف غير ما به غش الخليفة والزمان الأنكد
هذا من المخلوق كيف بخالق لعقابه يوم القيامة موعد

اما مدحه للمتوكل فديوانه مملوء منه وكان ينظم القصائد الغراء في مدحه ومدح ما قام به من مقاومة الاعتزال وحضد اصحابه وقتلهم وحبسهم واخذ اموالهم ومصادرة املاكهم كما فعل باسرة احمد واولاده واخوته وابن الزيات وغيرهما .

ومما قال في قصيدة :

جعفر وجهه يدل على الخير وكل امرىء عليه دليل
انت ميثاقنا الذي اخذ الله علينا وعهده المسؤول

بك تزكو الصلاة والصوم والحج وبزكو التسبيح والتهليل

بابي أنت ما أعز بك الحق وان كان مسعديك قليل

وقال في قصيدة :

ما زال منذ ولي الخلافة وارتدى بردائها

متوكلا فيهـــا على من خصه بسنائها

تنيه امة احمد للثار من اعدائها

من بعد ما طعنت قرو ن الشرك في احشائها

كانت غياهب فتنة والناس في عميائها

بينا كذلك اذ اضا ء الحق في ظلمائها

واختار ربك جعفر بن محمد لجلائها

وقال في قصيدة :

واقوم خلق الله بالذي يجب ويرضى جعفر المتوكل

فتى جمعت فيه المكارم شملها فما فاته منها اخير واول

عنايته بالدين تشهد انه بقوس رسول الله يرمي وينصل

اعاد لنا الاسلام بعد دروسه وقام بامر الله والامر مهمل

وآثر آثار النبي محمد فقال بما قال الكتاب المنزل

ومن عجائب الزمن ان هذا الشاعر لم تصف له الامور مع ممدوحه هذا ففره المتوكل وهجره ثم حبسه ونفاه ولم يقبل فيه شفاعة قال في الاغاني [. كان علي بن الجهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً خص بالمتوكل وكان من جلسائه ثم ابغضه لانه كان كثير السعاية اليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده واذا خلا به عرفه انهم يعيبونه ويثلبونه وينقصونه فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقة فنفاه بعد أن حبسه مدة ..]

وتوضيح ما اجمله صاحب الاغاني ان علي بن الجهم كان معتداً بنفسه وكان ينادم المتوكل جماعة من فحول الشعراء والعلماء امثال البحتري ومروان بن ابي الجنوب واحمد بن حمدون وبختيشوع الطبيب والحسين بن الضحاك وغيرهم وكان ابن الجهم يراهم كلهم دونه ولا يحفل بهم ولا يحترمهم فنفرصوا له ولا سيما حين حبسه المتوكل وقالوا له إنه يجمش خدم القصر ويغمزهم وانه كثير الطعن عليك والعيب لك حتى اوغروا صدر المتوكل فلم يقبل شفاعة من تشفع فيه ولكن ابن الجهم بقي محباً للمتوكل متفانياً في احترامه وتقديسه مرسلا له بعض القصائد مستشفعا ومما قال في احداها

فلا عدت اعصيك فيما امرت الى ان احل الثرى ملحدا

وقال من قصيدة اخرى :

تضافرت الروافض والنصارى واهل الاعتزال على هجائي

وغابوني وما ذنبي اليهم سوى علمي باولاد الزناء

انا المتوكلي هوى ورأيا وما بالواثقية من خفاء

قال ابن المعتز في الطبقات أراد باهل الاعتزال بني دؤاد وبالروافض الطاهريين وقال ابن ابي الحديد أراد بالروافض نجاح بن سلمة وبالنصارى بختيشوع وبالاعتزال علي بن يحيى المنجم ويرمي هؤلاء جميعا بالواثقية أي انهم جميعا من توابع الخليفة الواثق الذي كان يساعد المعتزلة قديما .

وقد نفاه المتوكل بعد الحبس الى بلدة خراسان وكتب الى الطاهريين ان يعاقبوه ولا يحترموه ثم أرجع الى بغداد واطلق سراحه فانعزل عن الناس بالمجون والاستهتار وصاحب القيانين والقيان وله ابدع قصيدة في ديوانه في وصف هذه المواخير والتبذل فيها .

ولما قتل المتوكل ثارت ثائرته وحزن حزنا شديداً واعتبر قتله محنة اسلامية عظمى ورثاه بقصيدة من اعظم ما جادت به قرائح الشعراء العباسيين واحسن ما وصفت به هذه القصيدة قول الاستاذ جميل مردم ناشر ديوان هذا الشاعر والمعلق عليه (رثاء بقصيدة طويلة لم يرث المتوكل بمثلها تفجعا وصدق لهجة بدأها بوصف سحابة نشأت في سماء العراق فجادت العراق واهله واغاثت السهل والجبل وافاضت الخير والبركة حتى هبت ريح عاتية فذهبت بها احوج ما يكون الناس اليها ولم يكفه هذا الرمز فتخلص من الكناية الى التصريح وبكى الخليفة أمر بكاء وانكر على القتلة الباغين وشنع على رجال الدولة الذين لم يدافعوا عن الخليفة ..)

ومهما كان فقد كان هذا الشاعر الوفي لممدوحه من اعنف الشعراء على الاعتزال واصحابه وكان الحجر الاساسي في ضرب هذه الفرقة الاصلاحية العظيمة التي لو استمرت بنشاطها لكان الشرق الاسلامي اليوم على غير ما نراه ..

عبد الحميد الدجيلي